الدولة المثلى

وانتصار العقل على الهوى

استعرض من صفحات التاريخ وحوادثه ما تشاء واذكر انقلاباً او اصلاحاً تنازع فيه السلطة والزعامة رجلان اولهما مفكر متعقل لا يقول الا ما يوحيه اليه الفكر المجرد عن الهوى ولا يعمل الا ما تقتضيه نواميس الطبيعة واحكام العقل والآخر تدفعه كهرباء العاطفة وحماسة الميول وتؤيده معرفته الفطرية بطبائع الجماهير ومطالبها — اقول اذكر اذا استطعت انقلاباً تنازع فيه الزعامة رجلان مثل هذين ولم يتبع الجمهور الرجل الثاني مولياً اياه الزعامة والسلطان ؟ ولاسيما اذا كان هذا الرجل على علم واسع فصيحاً حازماً

ان رجلاً صفاته كصفات الاول يستطيع ان يرسم الخطة المثلى لاصلاح اجتماعي تام ولكنه يعجز عن تنفيذها . اما الثاني فله من كهرباء العاطفة وحرارة الايمان واندفاع المتحمسين وقوتهم قوة تسيره امام الجماهير يجتذبها ويقودها الى حيث يشاء . يفلح الثاني في تنفيذ ما يراه لانه يؤثر في غرائز الناس واهواء الجماهير ويفشل الاول مهما تكن خطته صائبة واراؤه سديدة لانه يؤثر في قوى الادراك والفهم. ولا يخفى ان الغرائز اصول قديمة في طبيعة الانسان وان العقل من الفروع الحديثة والاصول كانت ولا تزال اصلب من الفروع واقوى

فالناس على استعداد تام للاصغاء الى ما يقوله الفلاسفة ولكنهم حينما يخيرون في اتباع فيلسوف قوّال او الانقياد الى نابغة فعّال شديد الشكيمة يختارون الثاني قسراً لانه يقول ويفعل ما يؤثر في غرائزهم واهوائهم

هنا فولتر قدس العقل والهه وروسو فتن بالحرية واصلاح العمران البشري . كلاهما من اكبر المفكرين الذين قاموا في اوربا وابلغ الكتاب . اصغى اليهما الناس يتحدثان ببلاغة نادرة وحجة ناصعة. على انهما لم يفلحا في ذلك الحين باقناع الجماهير بما يريدان ولم يستطيعا ان يكسرا من سلطة الملكية ولا ان يحركا الشعوب المستعبدة لمناهضة الملوك. كان تأثيرهما ذلك التأثير الصامت الخفي ولكنه لم يكن العامل المباشر للثورة الفرنسوية

ثم جاء نبوليون وهو رجل تحركه العواطف، وثق بنفسه فوثق به الناس فقادهم

من معركة الى اخرى وهم يتبعونهُ مختارين لانهُ نقر على اوتار في طبائعهم حسّاسة كحبّ الفتح والتوسع والسلطان وعادوا في اتباعهِ فتمادى هو في اتباع ميولهِ حتى غيّر من تقاليدهم وعاداتهم وبدّل من نظمهم ما لو اعتمد فيهِ على العقل والفكر المجردين لما حدث منهُ سوى الشيء اليسير حتى ولو جاء بمن يفوق فولتر وروسو

كذلك يذكر التاريخ موت سقراط الفيلسوف الحكيم وقد قامت تنازعهُ الزعامة الفكرية في اثينا جماعة يفوقهم بما اوتيهِ من فكر نير وعاطفة نبيلة وحكم صائب لكنهم فازوا عليهم لانهم افلحوا في استمالة الجمهور اليهم والجمهور حينئذٍ في اثينا الحاكم المطلق فقضوا ان يموت بالسم الزعاف فتناول الكاس وهو يقول اوثر الموت بالسم على نقض احكام بلادي . اضف الى اسم سقراط اسمي سنكا الحكيم الروماني وبسمارك السياسي الالماني تر كيف ان شهوة حاكم مستبدّ يؤيدها انقياد الجماهير قضت على رجلين من اكبر رجال الادارة السياسية في التاريخ فتسلم طاغيتان من اكثر طغاتهِ استبداداً زعامة مطلقة في امتين من اعظم الامم امة الرومان وامة الالمان

فاذا شئت ان تقنع الناس حتى يعملوا بما ترسمهُ لهم من الخطط فعليك ان تقنعهم عن طريق ميولهم لا عن طريق عقولهم اي يجب ان تؤثر في تلك القوى التي هي اصل في طبائعهم فتأتي برجل يستطيع ان يقنعهم كذلك حتى يبث فكرك بينهم بالاسلوب الذي يوافقهم

يقول العقل ان السبيل الوحيدة لاصلاح العمران هي ان تسير السياسة على قواعد من الصراحة وحسن النية والعدل . يقول العقل ذلك ويدلي بادلة على تأييد قولهِ لا تدحض . لكن الحكام والساسة لا ينفكّون سالكين مسالك لا يُسلّم بها العقل بل يرتاح اليها طبع الانسان فتؤيدهم الجماهير وتخضع لهم

والامل الوحيد للحصول على الاصلاح المنشود هو اثارة حرب شعواء لتحقيق ما يقضي بهِ العقل وكبح جماح الاهواء . وعلينا ان نجد وسيلة تستخدم بها قوى الاهواء بطريقة معقولة تفضي الى الخير والصلاح وهذا قد لا يتم الاّ بعد السنين الطوال ولكن لا بدّ من ان يجيء يوم يسلّم فيهِ العاقلون زمام الامور في هذا المجتمع فيتحكمون في قوى البشر ويصرفونها في المجاري الصالحة التي يراها العقل موافقة للاصلاح العام . فلا ينشأ بعدئذٍ بين الناس رجل كبوليون اقتن بنفسهِ فساق العالم الى ما لا يطاق من التخريب والتدمير . وظهور نبوليون في الماضي لم يكن

ذا خطر كبير على المجتمع الانساني لان ما كان يحدثهُ من التدمير في بلد من البلدان كان محصوراً لا يتعداهُ الى سواهُ لقلة الارتباط بين مختلف البلدان حينئذٍ. على ان الناس جادون في سبل التقدم ولا شك في ان العمران سيبلغ مبلغاً بعيداً من شدة الارتباط واعتماد بعضهِ على بعض حتى اذا اصابتهُ صدمة اخرى كحروب نبوليون او كالحرب الكبرى حلت اجزاءهُ وفككت روابطهُ وتركتهُ خراباً

وعلى رجال العقل في المستقبل ان يهتموا بتحديد المجاري التي تتصرف فيها قوى الاهواء كما يحدّد المهندسون مجاري الماء المنحدر فيستخرجون منهُ قوة كهربائية تدير المعامل وتنير المدن وتستخدم في الوف الاعمال الصغيرة والكبيرة

وللحصول على ذلك يتحتم على الذين يدينون بالتعقل والرزانة ان يتآلفوا ويتحدوا لكي يغتصبوا السلطان من الذين يجب ان يقادوا لينتفع العمران بهم على هذه الاركان تقوم الدولة المثلى

— رؤيا —

في الدولة المثلى يُقسم البشر الى طوائف وطبقات فلا يكون الفاصل بينهم لون العيون او الشعر او البشرة بل يقسمون حسب قواهم العقلية والنفسية. ويكون علماء النفس قد بلغوا من الكمال في علمهم درجة قصوى فيستطيعون ان يعرفوا قوى الطفل حين ولادتهِ فيضمونهُ في الطائفة التي تجدر بهِ ويجدر بها وهناك ينال من التعليم والتهذيب ما يمدّهُ للقيام بمطالب الطائفة الذي ينتمي اليها

واهم الطبقات الكبرى ثلاث هي طبقة ذوي العقول المدبّرة وطبقة رجال التنفيذ وطبقة العامة. ففي الطبقة الاولى نجد اصحاب العقول الكبيرة الذين فكوا قيود العبودية الفكرية فانطلق امامهم مجال الفكر والبحث حرًّا من اغلال الوراثة وقيود التقاليد فاكبوا على درس مشاكل الحياة درساً علميًّا. هؤلاء يُسلَّمون مقاليد السلطة والحكم

ولكن العقل المجرد لا يستطيع ان يسيّر العامّة لانهُ لا يؤثر فيهم الاّ من يخاطبهم عن طريق غرائزهم واهوائهم فلذلك يستخدم رجال السلطة رجال العمل الذين تحركهم عواطفهم واهواؤهم وهم على استعداد دائم للموت في سبيل معتقداتهم. هؤلاء الرجال الذين لهم قوة لا تحدّ على صنع الخير او اجتراح الشر لا يؤذن لهم في الدولة المثلى بان يندفعوا وراء تلك الاهواء سواء كان في ذلك خير الدولة او ضيرها بل يقيدهم رجال الحكم اي رجال العقل بما يريدون فيستخدمون ما فيهم من قوة

على تنفيذ الخطط المثلى التي يحكم العقل بافضليتها فلا يمنى العالم بعد ذلك بامثال نيرون او نبوليون او غليوم

و الرجال الذين يعينون بين رجال التنفيذ يجب ان يلقنوا في حداثتهم الدروس من ذوي العقول المدبرة فيخرجون الى الناس يدعون بما فيهم من قوة وسحر ونار الى تنفيذ الحقائق التي تهيئها لهم جماعة العقول المدبرة . وحالما تتم دعوة من هذه الدعوات او حينما ينتهي اجل فائدتها تعدُّ العقول المدبرة افكاراً جديدة وخططاً جديدة تلائم الاحوال الجديدة وتبعثها في نفوس جيل جديد من رجال العمل فيدعون اليها وينشرونها بين افراد العامة

والعامة هم القسم الثالث والاكبر في الدولة المثلى. يتألف هذا القسم من ناس لا يملو بهم الادراك الى الصف الاول ويهبط بهم ضعف الايمان وقلة الثقة بالنفس الى دون الصف الثاني

فحينما ترى العقول المدبرة ان العامة تحتاج الى حركة فكرية تجمع شملهم حول فكرة نيرة او تعقد عزائمهم حول مأرب بعيد يبعثون بجيوش اهل الثقة يدعونهم الى ذلك . وحينما لا تكون العامة محتاجة الى مثل هذه الدعوة يشتغل رجال التنفيذ بتعليمها وتهذيبها حتى يستخدم ما فيها من القوى الكبيرة الخافية بالممكنات العظيمة في سبيل تعود بالخير والنفع على الدولة . وذلك على اسلوب علمي دقيق تضعهُ جماعة العقول المدبرة بعد أن تدرس مقدماته ونتائجهُ وتوازن بين حسناته وسيئاته

ثم يستخدم ما في العامة من استعداد للاستهواء على اسلوب يعود عليهم بالسعادة والرخاء فيُبثُّ رجال التنفيذ فيهم يقنعونهم بانهم سعداء وان لهم مقاماً رفيعاً في نظام الكون وان كلما يفعلونهُ نبيل شريف . وافراد العامة في الدولة المثلى يشتغلون ثماني ساعات في اليوم ويخضعون لمن هم اعلى منهم فكراً واقوى عزيمة واوطد ايماناً وفي خضوعهم هذا راحة وسعادة . يعتقدون بعظمتهم وعلو مقامهم في نظام الكون ويتفنون بخلود نفوسهم . تلك سعادتهم المنشودة . سعادة لم تدنُ منها جماعة من البشر حتى الآن . فيسيرون في مسالك الحياة كأنهم على طريق تحف بها الورود والرياحين ويشملون بخمرة لا يصحون منها . اما رجال التنفيذ فهم الساقون في هذا العيد الكبير — يملأون الاقداح من الاكسير الصافي الذي تقطرهُ العقول الكبيرة المدبرة ، خلاصة الانسانية المختارة

فؤاد صروف